أعلام الأدب

نســـاء يوريبيدز

للأستاذ دريني خشبة

أكثر أبطال يوريبيدز وأقواهم وأزخرهم بالحياة الصاخبة والعواطف المضطرمة المتضاربة هم من النساء . . . لقد كان ينظر إلى المرأة كما كان إبسن الأسكندناق ينظر إليها . . . كان يرى أنها محور الحياة وقطب دائرتها ؛ وكان يرى إلى الرجل بجانبها كأنه لعبة ، فهي لا تفتأ تلهو به وتتخذ منه سيداناً لنشاطها وفريسة لأهوائها ، فإذا أرضاها فهو هالك ، وإذا أسخطها فهو هالك ، وهو هالك إذا لم يرضها أو لم يسخطها ، لأنها تقف منه دائماً موقف السبع الجائع الذي لا يعرف إلا السطو والنهش وإهراق الدماء لا حبًّا في هذا كله، ولكن لأن هذا كله مركب في طبيعته وجزء من جبلته

ولعل السبب في هذا ما لقي يوريبيدز من التعاسة في حياته الزوجية ، فلقد كان الشك يمزق قلبه من ناحية زوجته الأولى التي اتهمها التاريخ بأنها خانت زوجها ، كما يتهم زوجته الثانية بأنها لم تكن أخلص له ولا أوفى من سابقتها ... والمؤرخون المحققون على أن التهمتين باطلتان ، ولو أن فيهما ظلاً من الحق لما أهمله أرستوفان عدو يوريبيدز اللدود ومعاصره ومتسقط أنبائه وعصي عثراته ... إلا أن قسوة يوريبيدز على المرأة ونظرته الصارمة إليها وما دأب على تحليل أخلاقها به في أكثر دراماته ؛ كل ذلك دليل على ما كان يتردد في أعماقه من أصداء حياته الزوجية ، تلك الأصداء التي كانت تتجاوب في شدة وفي صرامة وعنف في ثنايا دراماته ... ولعل أقوى هذه الأصداء جلبة وأشدها ضوضاء ما صور به بطلته البربرية[1] ميديا التي شغفها جاسون حبًّا فلم تبال أن تخون أباها وتذبح أخاها في سبيل الفرار معه ؛ ثم لم تبال بعد ذلك أن تذبح ابنيها لكي تشب سميراً من الألم في نفس حبيبها الذي هو أبوهما لأنه أبغضها لكثرة ما رأى فيها من الميل إلى الأذى والتوسل إلى مآربها بسفك الدماء خصوصاً بعد إغرائها بنات بلياس بقتل أبيهن ... وكان عزاءها عن كل ما جنت يداها أن تقف على جاسون وهو يسفك روحه دموعاً بل دماً على ولديه فتشفي حَرَدَ نفسها وتدخل قلبها لأنه لن يبتسم للحياة بعد ، ولن ينعم بلذائذها بعد أن تركته وحيداً فريداً لا أنيس له ولا مواسي فيواسيه

لقد كان يوريبيدز جباراً في ميديا سنة ٤٣١ بقدر ما كان جباراً حتى في آخر دراماته وأروع مآسيه (هيبوليتس) التي عزا بها ميدان الحب الباكي الحزين ، والتي نال بها أولى جوائزه الرسمية سنة ٤٢٨ أي بعد ميديا بثلاث سنوات . ومأساة هيبوليت هذه هي تلك المأساة الغرامية الأولى التي خلصت كلها للحب بعد إذ كان المسرح اليوناني لا يعرف هذا اللون من ألوان الدرام ... فكانت مفاجأة مربكة من يوريبيدز وثورة ، ولكن من النوع اللذيذ المحبب ، على تقاليد البيئة الجافية التي عرفت المسرح جرائدي قبل أن يعرفها العصر الفكتوري بثلاثة وعشرين قرناً ... فيدرا زوجة ثيذيوس الملك ، تحب ابنه هيبوليت الشاب الجميل اليافع ، لأنها هي أيضاً شابة جميلة يافعة ، ولأن زوجها رجل شيخ وإن كان بطل أبطال اليونان ! هذه هي المأساة ! ! فكيف يجرؤ يوريبيدز على تناول هذا الموضوع الغرامي الشائك في درامة تعرض على الجمهور الأثيني الذي كانت تسيطر عليه المسرح جرائدي الرجعية المحافظة الشديدة الحفاظ على آداب السلف الصالح ؟ وكيف يكون

فإذا تعطلت الكتابة والإبداع بعض التعطيل في أمة ديمقراطية فإنما تتعطل من حالة فيها تشبه أحوال الاستبداد ، وهي انتشار الكثرة العددية بين جمهرة الشعراء ، والرجوع بالذوق إلى العدد الكثير دون المزية النادرة ، أي الرجوع به إلى « القوة العضلية » لا إلى الحرية أو المزية الفردية

لكل أديب رسالة

ورسالة الأدباء كافة هي التبشير بدين الحرية والإلحاح على صولة المستبدين ، فما من عداوة للأدب ولا من خيانة لأمانة الأديب أشد من عداوة « القوة العضلية » وأخون من خيانة الاستبداد .

عباس محمود العقاد

---

(١) كان اليونانيون يطلقون على غيرهم من الأمم ولاسيما جيرانهم من أهل الشمال وسكان آسيا كلمة البربر ، وهم في ذلك يشبهون العرب حينما كانوا يطلقون على غيرهم كلمة الأعاجم وسنتناول ذلك في فصلنا (وطنيات يوريبيدز)

أجرأ من سقراط الذى كان لا يرى أن تشارك المرأة فى الحياة العامة ، بل أن تظل حيث هى ، بل كيف يكون مفاجئاً أكثر من بركليس ممثل العصر ، وصاحب نهضته الفكرية ، ورمز مدنيته ؟ والواقع من هذا كان يوصى أن تظل الفتاة قابعة فى عمر دارها ، منعزلة بين السلف وتقاليده ... لكن يوريبيدز كان سوفسطائياً قبل كل شىء ، والسوفسطائيون كانوا (صناع الحكمة) كما تدل عليه كلمة Sophia التى تعنى الحكمة أو Aretê أى الفضيلة ، والتى اشتق منها اسمهم Sophistes أى الناس الذين يتناولون البحث فى الحكمة . وليس صحيحاً أنهم كانوا ثرثارين كما اتهموا بذلك ظلماً ، ولكن الصحيح أنه كان منهم العظماء وغير العظماء ، وكان منهم الكبار ، وكان منهم الأحداث ، وكان منهم الأغنياء وغير الأغنياء ، وكان منهم كل صنف من صنوف الشعب ؛ لكنهم كانوا جميعاً ينشدون الحق ، ويهذبون الناس ، وينشرون النور ، ولا يبالون فى سبيل ذلك مصادرة ولا نفياً ولا تقتيلاً .. ويقولون إن يوريبيدز كان يتأثر بسقراط ولو لم يختلط به ، وكان تأثره بالفيلسوف العظيم ينعكس فى دراماته . كما قيل من أن شاكسبير كان يتأثر ببيكون ، وإن يكن ما يقال عن هذين يعدو حدود التأثر إلى حدود التحمل . فالباحثون من مؤرخى الأدب الإنجليزى يدّعون أن أكثر درامات شاكسبير هى من تأليف بيكون ، وإنما تحلها شاكسبير نفسه ... ونحن نظن أن يكون يوريبيدز قد تأثر بسقراط فى كثير أو قليل من أدبه . بل نرى أن عكس ذلك هو الذى وقع . فقد ذكرنا أن سقراط كان لا يذهب إلى المسرح إلا ليشاهد درامات يوريبيدز ، وأنه لم تكن تفوته إحداها قط ولو كلفه ذلك ما ليس يحتمله إلا الأشداء من جهد ومشقة . ثم أين نظرة يوريبيدز إلى المرأة وما كان يجنح إليه فى تحليل أخلاقها من عنف وصرامة ، من نظرة سقراط إليها ؟

لقد ألف يوريبيدز أكثر من تسعين دراما كانت البطولة فى أكثرها للمرأة . وقد ضاع من هذه الدرامات التسعين أكثرها بحيث لم يصلنا إلا تسع عشرة ، ومع ذلك فللمرأة البطولة الأولى فى معظم هذه الدرامات الباقية ... ويأتى الرجل فى المرتبة الثانية دائماً إلا فى عدد قليل منها ...

لقد كان يوريبيدز يقسو على المرأة فى غير هوادة كما قسا عليها فى ميديا وكما قسا على فيدرا كما سنرى فيما بعد ، فإذا لم يقس عليها عرض نواحى ضعفها الذى تسميه الأخلاق وقة أو حنانا أو حفاظا وتسميه الفسيولوجية ضعفاً أو تلبية لنداء الطبيعة إذا كان هذا الضعف زنا أو مروقا من رقبة الزوجية .

١ — فى ميديا تذبح المرأة أخاها وتنثر أشلاءه من أجل لذتها ، ثم تغرى بنات پلياس بقتل أبيهن من أجل الملك الضائع من زوجها ، ثم تذبح ابنيها اشتفاء — أو تشفيا — من هذا الزوج بعد أن تقتل زوجته الجديدة بالسحر حتى تضع حداً لسعادته بعدها .

٢ — وفى هيپوليت تخون الزوجة ابن زوجها ، فإذا أبى واستعصم ضاقت بها الأرض وذهبت لتنتحر ، ولكنها تخشى أن يدافع عن نفسه عند أبيه فيفضحها فتزور خطاباً تتهم فيه هيپوليت بأنه راودها بل هم بها بالفعل ، ثم تشنق نفسها بعد ذلك .

٣ — وفى ألسستيس Alcestis (٤٣٨ ق . م) يصور لنا أدميتوس الملك الأثانى الذى يمشق الحياة ، حتى إذا كان لا بد له من الموت تقدمت زوجته لتفديه فيقبل الفداء ، وبذا تموت هى عوضاً عنه ويمضى البطل هرقل بعد ذلك ليعود بالزوجة من الدار الآخرة هيدز . فليس وفاؤها هذا وفاء إنما هو ضعف سيكلوجى لأنه حصل من أجل رجل دنىء أثر أنانى

٤ — وفى هكيوبا (٤٢٤ ق . م) يعرض لنا هذه المرأة العظيمة النبيلة زوجة پريام ملك طروادة بعد إذ حل بها ما حل من هوان وأسر ثم سبْى ، وكيف تلقى كل ذلك بأجمل الصبر حتى إذا اشتد بها الضيق وذهبت تعرض شكواها على أجاممنون عظيم الأغريق الذى آثر نفسه بابنتها كاسندرا ، تلك الفتاة النقية التقية التى احتفظت بعفريتها وتسامت بإنسانيتها حتى غدت نبية الطرواديين فيأتى الملك أجاممنون فيؤثر بها نفسه ويرغمها على أن تكون (حظيته !) إشباعاً لشهواته الوضيعة . . . ومع كل ذلك فإن الأم هكيوبا تصبر لهذه المحن ، وتتدرع بكل ما فى طوقها من تجلد حتى إذا فاضت الكأس وسيقت ابنتها الشجاعة الصابرة پولكسينا إلى حيث يضحى بها فوق قبر أخيل كما طلب رعاع الجيش ثار ثائر هكيوبا ومسختها الآلام فصيرتها كلبة من وحوش جهنم الخرافية تتصور وتلهث ، فهى تسمل عينى پوليمور وتذبح ابنيه لتثأر لآلامها .

٥ — وفى يون (٤٢٠ ق . م) يعرض لك يوريبيدز مشكلة غرام ورما بين كريزا Creusa بطلة الدرامة وأبوللو إله الشمس والموسيقى فقد أحبها الإله وفسق بها قبل أن تخطب على زوجها إجزوثوس فلما أجاءها المخاض خافت الفضيحة فطرحت الإله الفاسق وأخذ طفلها يون إلى دلفى حيث خبأته وراء ستائر المذبح فى سفط به شالها وبضعة أشياء أخرى . . . وبعد سبع عشرة سنة عاشها إجزوثوس وكريزا من غير ما ولد تمنى الرجل على أبوللو — فى دلفى — أن يرزقه وليا يرثه ، فقال له : إن أول من تلقاه حينما تخرج من هنا هو ولدك ... فلما لقى الرجل الشاب يون احتضنه وفرح به ، وعجب الشاب لهذا الرجل الذى يناديه كأنه ابنه؛ ثم تلقاه أمه كريزا فيكون بينهما من التشابه والحنان ما يحير الفتى؛ ثم ترى كريزا السفط فتعرفه وتذكر للفتى أنه سفطها وأنها هى التى أحضرته فيه إلى المعبد فيمتحنها الفتى بسؤالها عن محتويات السفط فتذكرها له جميعاً فيدنقها على أنها أمه، فإذا سألها عن أبيه ألهمها أبوللو الجواب الكاذب فتقول إنها كانت قد اتصلت بأجزوثوس فى أحد أعياد دلفى فحملت به ... وإذ هى تقول ذلك إذا بكاهنة المعبد تبرز فجأة وتقول الحق الصراح عن نشأة الغلام وأنه ابن زنا من أبوللو ... فتضيق الدنيا بالزوجة وتذهب لتنتحر لولا أن يلقاها أحد العبيد فيشير عليها بأن تقتل الغلام فترضى .. أما يون فإنه يثور ويجدف تجديفاً مضحكا ضد أبوللو . . وتنتهى الدرامة بأن تتدخل مينرفا فى الأمر فتصلح بين الجميع وتهدأ العاصفة ويرضى الكل بالأمر الواقع !

فانظر كيف سخر يوريبيدز من المرأة وكيف استهزأ بالآلهة وفضح أبوللو ومشورته ثم أركس مينرفا ومن الحكمة فى بؤرة ذاك الضلال !

٦ — وفى النساء الطرواديات (٤١٥ ق . م) لم ينشئ مؤامرة ما ولم يحبك عقدة درامية ولكنه صور ضعف الأمهات الطرواديات إذ يذهبن إلى المعسكر الإغريقى يسألن القادة الظافرين أن يأمروا لهن بجثث أبنائهن ليدفنها بدل أن تترك بالعراء تنوشها الذئاب وجوارح الطير ومن غير أن تؤدى لها الفرائض الجنازية . وتنتهى الدرامة بأن يتدخل بعض القادة ممن تأثر بدموع الأمهات فيأمر بالأجساد فتحرق ويعطى التراب المتخلف عنها للأمهات ... درامة ضعيفة إلا أن يوريبيدز قصد فيها إلى شيئين . . تصوير ضعف أولئك الأمهات وجبروت الظافرين من جهة ، ثم ذم الحرب والدعوة إلى السلام من جهة أخرى ، لأنه كان أول مبشر بالسلام عرفه التاريخ إذا استثنينا إخناتون المصرى) وسنعرض لذلك فى الفصول التالية إن شاء الله

٧ — أما فى إلكترا (٤١٣ ق . م) فيتناول يوريبيدز المأساة المشهورة التى رأينا إسخيلوس يتناولها فيفسر الحوادث ، ورأينا سوفوكليس يتناولها فيصور كيف كان ينبغى أن تكون الخاتمة لا كما تم من أمرها ... لكن يوريبيدز يتناولها على طريقته الخاصة ... إنه يقصد الناحية السيكلوجية ، ولذا فهو لا يبالغ فيصيب أورست بالجنون بعد قتل أمه كما فعل إسخيلوس ولا يبالغ فى تحميل العاطفة الإنسانية وإرهاقها بما لا تستطيع من ابتهاج بالقتل وفرح به وحض عليه كما فعل سوفوكليس ... لا ... إن يوريبيدز صنع ما صنعه بعده دستوفسكى الروسى فى قصته الجريمة والعقاب باثنين وعشرين قرناً من الزمان ... إنه جعل أورست يقتل أمه ويده ترتجف بحركة آلية لا إرادة فيها كما قتل روسكلنيكوف اليهودية المرابية العجوز ... حتى إذا تمت الجريمة عادت إلى نفس الفتى والفتاة مرارة عميقة لا هى من الندم ولا هى مما يشبهه ، لكنها مرارة التحسر لكل ما حدث ... ومرارة التحسر بما اضطرها إليه سياق الحوادث وتسلسلها

٨ — وفى هيلينا (٤١٢ ق . م) يبنى يوريبيدز درامته على أساس فكرة المؤرخ ستاسيخورس الذى يزعم أن هيلين التى تسببت فى حرب طروادة لم تذهب قط مع باريس إلى هذه المدينة بل ظلت طوال سنى الحرب فى مصر تعيش بملكها وتلهو به حينما حاول أن يتزوجها رغماً عنها ويقتل جميع الإغريق الذين ينزلون فى أرضه ... وتنتهى حروب طروادة وتضل سفينة منالوس زوج هيلينا طريقها فى البحر حيث ترسو على الشاطئ المصرى ويلتقى الزوجان فيعرف أحدهما الآخر ويفران بمساعدة أخت الملك إلى اليونان . ويعيب المؤرخون هذه الدرامة بخروجها مما عودنا يوريبيدز من أدب الواقع إلى أدب الخيال ؛ بيد أن فى الدرامة من تحليل أخلاق هيلينا ، تلك المخلوقة الخلاسية (لأنها ابنة إله وامرأة) اللعوب التى لا تعرف من مبادئ الأخلاق أو الفضيلة عشر معشار ما تؤثر من الحب ومغامرات الهوى ؛ فى الدرامة من هذا ومن تحليل أخلاق ألكتر ما يعطى ذلك النقص الذى عابه المؤرخون

وكم كان ظريفاً من هيلينا أن تعبّر أكثر حينما عبرتها هذه بالصور والألوان الأخلاقية بأنها غير جميلة، ولو كانت كذلك وواتتها الفرص لما امتنعت من إتيان أضعاف ما أتته هيلينا ؟ !

٩ — أما إفجنيا فى أوليس فهى دراما عجيبة لأنها من هذا النوع الذى كبيرى الجيل الذى تمتزج فيه المأساة بالملهاة، والدموع الحرار بالضحك الكثير . . ويقال إن يوريبيدز ليس مؤلفها بل تركها غير كاملة فأتمها شاعر آخر قد يكون ابنه[1] الذى أشرنا إليه فى كلتا الأولى ... والحقيقة أن فى هذه الدرامة من الفن الجديد ما لم يعرفه يوريبيدز وما لم يعرفه المسرح إلا فى عصر شاكسبير ... وإفجنيا هى تلك الفتاة ابنة الملك أجاممنون قائد الحملة على طروادة والتى تنبأ الكاهن كالخاس بضرورة ذبحها قرباناً لآلهة الريح ليتحرك الأسطول ... يزوّر أجاممنون رسالة إلى زوجته كليتمنسترا كى ترسل ابنتها للاحتفال بعقد قرانها على البطل أخيل فتذهب الأم مع ابنتها وتلقى أخيلاً بما يليق فى مثل هذه الحال من الترحيب وتناديه بخطيب ابنتها فيدهش أخيل لأنه خالى الذهن من كل ما دبر، ويتقلب الموقف إلى التضحيك على أخيل فيثور، ثم يعرف الحقيقة ويأتى عبد فيخبر الملكة أن ابنتها ستذبح قرباناً لآلهة الريح فتحزن الأم وتبكى الفتاة ويقسم أخيل أن يحميها من هذه الفعلة ... ثم يعلم الجند أن أخيلاً هو الذى يحول بين سفرهم وبين ذبح القربان فيثورون ويهجم رجال (الميرميدون) عليه يحصبونه حتى ليوشكوا أن يقتلوه ... وهنا تتقدم الفتاة فتحميه وتهب نفسها ضحية كريمة من أجل أخيل الذى تفضل روحه أرواح عشرة آلاف فتاة مثل إفجنيا[2] ولأنه خرج مغازياً فى سبيل هيلاس ... وتودع الفتاة أباها ثم تخرج بسامة راضية ... وهنا يدخل رسول فجأة حاملاً بشرى طيبة .. لقد أنقذت ديانا الفتاة إفجنيا وطارت بها إلى بلاد البربر ...

١٠ — أما إفجنيا فى توريس (٤١٣ ق . م) فهى بقية قصة إفجنيا ؛ وفيها يعرض يوريبيدز لوناً ساراً من ألوان العراك الداخلى الذى يشب فى نفس الفتاة بين السخط على قومها الذين أوشكوا يقتلونها لغير ذنب وبغير جريرة ، وبين محبتها الطبيعية لوطنها هيلاس خير الأوطان . لقد ذهبت بها ديانا (أرتميس) إلى ملك التوريين (غير الطورانيين) لتكون كاهنة لمعبدها هناك ، وقد أكرم الملك مثواها ، وعهد إليها بإعداد الغرباء لتحريقهم بالنار (لأن هذا كان دأب الملك ، فكل غريب أو أجنبى يحل بأرضه وخصوصاً إذا كان إغريقياً) أحرقه بالنار . ثم يحدث أن يكون أول غريب يُعهد إليها بإعداده للتحريق هو أخوها وشقيقها أوورست الذى طارده قومه بعد قتله أمه ... لقاء هائل بعد سبعة عشر عاماً ... تتحرك العاطفة ، وتترقرق الأحاسيس فى الدماء . يعرف كل منهما الآخر فيبكى .. يا للمشهد المؤثر الذى يرتفع فيه يوريبيدز إلى القمة ! !

ثم تطمئن الفتاة أخاها وتدبر له طريق الهرب إلى شاطئ البحر حيث القارب المعد لفرارهما ، وحيث البحارة الأمناء !

* * *

هذه طائفة من نساء يوريبيدز عرضها فى دراماته عرضاً شائقاً يمتزج فيه الشعر بالأخلاق بالسيكلوجية ، بطريقة أهاجت عليه البيئة الأثينية عامة ، ونساءها خاصة ، لأنها بيئة محافظة لم تتعود أن تُشرّح أسرار نسائها على المسرح على هذا النحو الذى انتحاه يوريبيدز فأخجلها وأغراها به .

وكم كان بودنا لو خلصنا لكل من هذه الدرامات بفصل خاص حتى نتفادى تشويهها بهذا العرض السريع لولا ما نتوخاه من عدم الإملال ، وما نخشاه من فتور نشاط القراء .

دريني خشبة

(١) هذا رأينا نحن ولم يقل به أحد من المؤرخين الذين نعتمد عليهم فى هذه البحوث

(٢) ترجمة وتر لجمة-دانت

اعلان

تلفنا

مدارس برليتس

بشارع عماد الدين رقم ١٦٥

ما بين أول و ١٥ مايو

فصول جديدة فى اللغة

الفرنسية والانكليزية والألمانية

٣ أشهر	٦ أشهر	٩ أشهر
٨٠ ص	١٣٠ ص	١٨٠ ص